13 me Année No. 609

Lundi - 5 - 3 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٠٩ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — الموافق ٥ مارس سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

المدارس الادبيـــــة

للأستاذ عباس محمود العقاد

من الحكايات الانجليزية المروية أن بنتاً من بنات الفلاحين وصلت إلى العاصمة فرأت جنوداً مصطفة وزحاما من الناس على جانبي الطريق وشرطا يذهبون ويجيئون وخيلا تعدو بفرسانها كوكبة بعد كوكبة ، فعجبت لهذه الحركة التى لم تعهدها فى قريتها وسألت ما الخبر ؟ فقيل لها إنه الملك يعود إلى قصره من هذه الطريق . فوقفت تنظر مع الناظرين حتى عبر بها الملك فى مركبته فنظرت اليه وهى لا تصدق ماتراه ، وصاحت بمن حولها : عجبا ! انه إنسان مثلنا ، فلماذا يجتمع الناس لينظروا إليه .

هذه البنت الريفية توجد فى كل بلد وفى كل زمن ، لأن الدنيا لن تخلو يوما من أولئك الذين يغلو بهم وهم السماع فلا يعرفون الواقع حين يرونه ، ويحسبون أن الأمور التى يتحدث بها الناس ينبغى أن تبدو للانظار والأسماع على غير ماتألف وتعتاد .

وليس هذا بعجيب فى أخلاق الجهلاء ، ولكنه عجيب ولاشك حين يتصف به أناس يحكمون فى الأدب والفكر ويقيمون الحدود بين الكتاب والشعراء ويزعمون أنهم يعرفون ويعلون المعرفة على الذين لايعرفون !

ومن هؤلاء كاتب فى صحيفة سورية تناول ما كتبته «الرسالة» عن بعض المدارس الأدبية فقال كما قالت تلك البنية الساذجة : عجبا ! ان هؤلاء إلاأناساً كسائر الناس ، فكيف يكونون أصحاب مدارس فى الكتابة أو الشعر كأولئك الذين نسمع عنهم من وراء البحار ؟

وأظهر شىء تدل عليه تلك الدهشة أن « البنية الريفية » التى كتبت فى تلك الصحيفة السورية لاتعرف مدرسة واحدة من مدارس الأدب فى الغرب ولا فى اللغة العربية ، وإنما تعرف تلك المدارس على الوهم الذى يخيله اليها السماع ولا يتمثل لها لحظة فى صورة الفهم الصحيح .

ولو لم تكن تلك « البنيّة الريفية » كذلك لأدركت أن الأدب الغربى — منذ أربعة أجيال على الأقل — لم تنشأ فيه مدرسة واحدة صنعت فى أدب قومها بعض الذى صنعه أدباء العربية فى الجيل الحاضر والجيل الذى سبقه ، لأن الآداب الأوربية تجرى منذ ألف سنة فى طريق واحدة يتقدم فيها السالكون خطوة بعد خطوة ومرحلة فى إثر مرحلة ، ولا ينتقلون فيها إذا انتقلوا فترة بعد فترة إلا من مقدمة محضرة إلا نتيجة منتظرة ، تمشياً مع الحركة المطردة . عصر اليونان إلى عصر النهضة التى جددت بعض مدارس اليونان ، إلى عصر الإصلاح والثورة بلا انقطاع ولا انحراف ، إلا فى أيام الركود والجمود .

فقصارى ما تصنعه المدرسة الأدبية بين العربيين أنها تريد في المجاز أو تزيد في التعبير عن الواقع ، وأنها تميل إلى الأسلوب المأثور أو تدخل عليه بعض التصرف والتعديل ، وأنها تجمع إليها رهطاً من الزملاء بينهم تشابه في المزاج وتقارب في الموضوعات أو تقارب في موضع الإقامة وفي المناظر التي يلتفتون اليها ويعنون بوصفها ، ثم يرجع الناقد إلى أدب قومهم قبل ظهورهم وبعد ذهابهم فاذا هو متقارب متتابع لا وثبة فيه ولا جنوح عن الجادة التي مهدت من قديم الزمان .

ولا يستطيع أحد من أولئك السامعين أن يترجم شعر خمسين سنة متوالية إلا بدا له أنه كالحلقة بعد الحلقة في سلسلة واحدة قلما تتباعد في أوساطها وإن تباعدت في أطرافها ، وانه على الإجمال نوع واحد من الأدب في القديم .

أما أدباء العربية في الجيل الحاضر والجيل الذي سبقه فقد صنعوا في تغيير مقاييس الأدب مالم تصنعه مدرسة واحدة أوربية في الأجيال الأخيرة .

لأن اختلاف المقاييس هنا هو اختلاف بين نغمة ولغة ، وبين طبيعة وطبيعة ، وبين اقليم واقليم ، وبين زمن وزمن ، وبين موضوعات وموضوعات .

كانت مقاييس الأدب عندنا هي المقاييس التي يقال فيها هذا أغزل بيت قالته العرب ، وهذا أهجى بيت قاله الانس والجن ، وهذا معنى لو تقدم صاحبه في الجاهلية يوماً واحداً لكان أشعر الشعراء .

وكان الأديب العظيم معصوماً من النقد والملاحظة ، فاذا نقد أو لوحظ عليه فانما يجترئون عليه لأنه متأخر لا يستشهد بكلامه في العربية ، ولا يكون اجتراؤهم عليه لحرية فكر أو صدق نظر الى القول والموضوع .

وكان البيت وحدة القصيدة ، وكانت القصيدة شتيتا لا يشبه البنية الحية ولا يقبل الاسم والعنوان ، إلا أن يذكر في صدرها أنها نظمت في تهنئة زيد أو رثاء فلان .

وكانت الدواوين كراسات مملوءة بالقصائد من حرف الهمزة الى حرف الياء بغير تفرقة في معارض الكلام ومعانيه الا ماتعودوه في التفرقة بين باب المديح وباب الهجاء وباب الوصف وما شاكل ذلك من الأبواب .

وندع المنظوم والمنثور وننظر الى الشعراء والكتاب أنفسهم فاذا هم قد كانوا في عرف العلية والسفلة متسولين أو ندماء يغشون المجالس للتسلية والترفيه ، ولا تعرف لهم رسالة مرعية في عالم الفكر أو في عالم الروح .

كل أولئك قد تغير في جيلين ، أو تغير معظمه في جيل واحد ، ثم لا يقال عن الذين غيروه إنهم جاءوا بمدرسة من مدارس الأدب أو بدلوا حالا بعد حال ، ولا يزال كثيراً عليهم أن يشبهوا بأولئك الأدباء الأوربيين الذين تنسب إليهم المدارس لأنهم كانوا يقيمون عند بحيرات الجبال ولا يقيمون في الحواضر والعواصم ، أو كانوا يفصلون في مسائل الجنس والغرام ولا يجملون ، أو كانوا من أهل التصريح في العبارة ولم يكونوا من أهل الكناية والايماء .

جاء أولئك الأدباء الذين تستكثر « بنيّات الريف » أن تنسب المدارس اليهم فاستطاعوا في مدى قصير أن يغيروا النظرة إلى الأدب وأن يغيروا النظرة إلى الأدباء .

فليس أدباء العرب اليوم مسترفدين ولا ندماء أسمار ، ولكنهم أصحاب صناعة مكرمة يضارعون في الكرامة أولئك الذين كانوا يمدحونهم ويتزلفون إليهم ويقفون على أبوابهم في انتظار جوائزهم قبل جيلين أو ثلاثة أجيال ، وإذا استطيع في الغرب تعظيم شأن الأدباء على هذا النحو فليس في ذلك من عجب وليس فيه كبير فضل للأديب ولا لأحد من أفراد الناس ، لأن استغناء الكاتب أو الشاعر بأعماله بين أمم محيت منها الأمية وتعودت مطابعها أن تخرج من الكتاب الواحد عشرات الألوف من كل طبعة أمر غير عسير .

أما المعجزة حقاً فهي تعظيم شأن الأدباء في بلاد لا يزيد قراؤها على عشر أهلها ، ولا تملك مطابعها أن تعمم نشر الكتب بين القراء القليلين وهم موزعون هنا وهناك بين شتى الأقطار .

وهذه المعجزة صنعها أولئك الأدباء الذين يكثر عليهم أن تنسب المدارس إليهم !! ولم يصنعها الأدباء الذين تسمع بهم « بنيّات الريف » ولا يعقلون عنهم شيئا وراء السماع .

صنعوا هذا وصنعوا معه أنهم غيروا النظرة إلى الأدب كما أسلفنا فانتقلوا به من عصر إلى عصر ومن موضوع إلى موضوع ومن مقياس إلى مقياس ، ولم يكن هذا الأمر ليتيسر في البلاد الشرقية كما تيسر نشأة المدارس في البلاد الأوربية ، لأن تغيير المقاييس